الى الاستاذ الصفى الجليل الدكتور صبرى
المصرى [illegible]
[illegible]

ابن نباتة الشاعر المصرى

بحث ونقـد وتحليل

بقـلم

اسماعيل حسين

﴿ أستاذ الأدب العربي وتاريخه ﴾

بكلية العلوم والآداب للجامعة الامريكية

للمؤلف رسالة سبق طبعها
فى مهيار الديلمى الشاعر

مطبعة الآداب والفنون

١٩٣٢.

﴿ السهو ﴾

سقط من السطر التاسع من الصحيفة الاولى بعد عبارة . فى الجهل بها — الجملة الاتية التى لا يتم المعنى الا بها وهى : منجاة للطلبة عن الوقوع فى الخطأ

وسقط من السطر الحادى عشر من الصحيفة الثانية بعد كلمة بالمحسنات البديعية : الجملة الآتية—وهي : والترا كيب المتكافئة

﴿ الخطأ المطبعي ﴾

ص	س	خطأ	صوابه
٧	١٦	ابن	بن
١١	١	نباته	نباتة
٢٤	١٢	مزروع	مذروع
٢٨	٢٣	أهد	اهد
٣	١٣	لؤلوليات	لؤلؤيات
٣٦	١٨	عزالى	عذالى
٣٦	١٩	عزولى	عذولى

مقدمة الكتاب

أضع كتابي هذا بين يدي القراء . طلبة ناشئين . واخوانا نابهين . في دولة الأدب الصادق . وقراء يبتغون التسلية في وقت الفراغ . وقد وضعته صورة لحياة الشاعر جمال الدين بن نباتة المصرى . وهو الذى اختارته وزارة المعارف المصرية موضعاً للدراسة الأدبية في هذا العام

ولست احمل الطلبة على الاخذ بما يجدونه في هذا الكتاب من البحوث والآراء ، وخير لهم أن يوازنوا بينها وبين نظائرها . لأن الطالب لا يعرف خطأ المعلم إلا اذا انتقل الى غيره . ولا صواب كتابه إلا اذا قرأ سواه

ولا أدعى الالمام التام بكافة ما يتعلق بعلم الادب وتاريخه . ولا أشيعه عن نفسى ترويجا لبضاعة مزجاة في الجهل بها

ولست ادعى العصمة من الخطأ . ولا أقلد قتادة فانه وهو العمدة في رواية الحديث ومن كبار علماء التابعين — قال ذات يوم — ما سمعت شيئاً قط ولا حفظت شيئاً قط فنسيته — ثم قال — يا غلام : هات نعلى ؟ — فقال هما فى رجليك

وفى السنة الماضية أذعت رسالتى عن ديوان الشاعر . وكتبت عنها الجرائد والمجلات الادبية تقول إنها جديرة بالعناية . وأرسل الى جماعة من الأدباء ومن كبار رجال التعليم فى وزارة المعارف يحبذون ذلك المجهود الضئيل . وتلقيت كتابا من العلامة المستشرق الدكتور رجليوت يمتدح فيه أساليبها . فاعتقدت بعد هذا الاقبال أنى استطيع خدمة لغتى وناشئة أمتى بما أنعم به الله على من كفاية . فأقدمت على كتابة هذه الرسالة

آراء فى البحث والنقد اقدمها للطلاب

ذكرت فى رسالة مهيار عن الاديب . والأدب ، والنقد والناقد ، مافيه الكفاية للطالب الناشىء إذا ماطلع عليها هناك . وقلت فيها ان علم الادب لايمكن تحديده ولاحصر غاياته ككل الفنون . وأشرت الى مايكابده الناقد الحديث فى بحوثه من الصعوبات . ونبهت الى ان الدراسة التحليلية كانت ذائعة عند العرب من عهد الاسلام ولكنها لم تتوضح اساليبها إلا على يد الغربيين فى هذا العصر لأنهم مهروا فيها ونبغ منهم شيوخ النقد وأساتذته

واتماما للفائدة أنصح الطلاب . بألا يتقيدوا فى بحوثهم بقاعدة . ولا يتشبعوا باعتقاد . ولا يتقيدوا بمبدأ . وعليهم ان يقلبوا الامور على وجوهها مرارا حتى يتهيأ لهم وضع ايديهم على الحقيقة المنشودة

ومن الصواب ان يصونوا نفوسهم فى بحوثهم الادبية عن الانخداع بالمحسنات البديعية فلا يغرهم إحكام الاستعارة . ولا ملاحة التورية . ولا يدهشون للاطناب الفصيح — ولا يؤخذون بالايجاز البليغ — فانها أصبحت فى نظر علماء النقد أداة خداع للأعلان عن النفس . وليعلموا حق العلم ان الحقيقة والجمال لايعبر عنهما الا لسان يترجم عن العقل الراجح والفكر الصائب . والخيال الخصب العميق . بالقول الصريح — وفى هذا التعبير وحده تلك الغايات التى يجدون وراءها

ولا يحملون النفس فى البحث فوق طاقتها فانهم فى تجاوزهم الحد . تعمقا . وسمرا . يتصورون ما يتوهمونه حقيقة . ولو كشف عنهم الغطاء لتبينوها غريبة عنا وبعيدة كل البعد عن دائرتى العقل والخيال

وليحذروا غرور بعض النقاد إذا ماراً أوهم يضعون القواعد ويجعلونها عامة ليتوسلوا بها إلى الوقوف على مكنونات نفوس الأدباء والشعراء من مطالعة نفثات أقلامهم . فان الطلبة بقليل من الامعان يتضح أمامهم أن تلك الفئة يضطرها غلوها إلى عصيان الحق حبا فى إطاعة القاعدة

قد يقولون أن كتابة الأديب وشعر الشاعر قطعة من نفسه فيجب أن تؤخذ دليلا على النفس كلها — وهذا من الخطأ المحض — لأن النفس كثيرة النواحى بعيدة الشبه — والكتابة قد تكون قطعة من احدى نواحيها وحسبها أن تدل عليها وعلى كفاية العقل أو درجة الفهم ومنزلة الخيال

عصر المماليك

اجدنى قبل الكلام عن الثقافة والعلوم والآداب فى عصر المماليك فى حاجة إلى تقرير حقيقة مرة: وهى — ان ولبرج بك المفتش بوزارة المعارف سابقاً وضع باللغة الفرنسية سنة ١٨٨٩ كتابا (١) فى التاريخ ذكر فيه عن عصر المماليك العبارة الآتية (٢) (ان النجاح الذى عم البلاد فى أيام الايوبيين أخذ فى الانحطاط أيام المماليك — وعلل ذلك بقوله — ان ممارسة العلوم والآداب التى لا تزدهر إلا فى وسط محفوف بالنظام والامن قد ساورها الانحطاط وانتهت بموتها والاعراض عنها)

وقد اتخذ مؤلفو كتب الادب وتاريخه فى عصرنا هذه الدعوى كقاعدة صحيحة فى الكتابة عن عصر المماليك، وكتبهم يدرسها الطلبة كأنها من العلم الصحيح

ولكى أصور لطلبة هذا العصر تصويرا صحيحا يعرفون منه الحالة التى كانت عليها العلوم والآداب فى غضونه — رجعت الى مؤلفات المقريزى والصفدى والسيوطى وابن اياس وابن حجر وغيرها الاتى رأيتها اصدق فى الرواية من كتب الغربيين

فأولا ينقسم عصر المماليك الى قسمين عصر المماليك البحرية ويبتدىء من سنة ٦٤٨ هـ الى سنة ٧٨٤ هـ واولهم الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير

---

(١) طبع فى مطبعة بولاق سنة ١٨٨٩

(٢) صحيفة ٧٧ من المجلد الرابع

التركانى الصالحى وآخرهم السلطان الصالح زين الدين حاجى بن شعبان

وقد كتب (١) المقريزى عن تربية هؤلاء المماليك وتثقيفهم كتابة جديرة بان يعتمد عليها فى الحكم عليهم وعلى عصرهم قال :

(اذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله فى طبقة جنسه وسلمه لطواشى برسم الكتابة فأول مايبدأ به تعليمه مايحتاج اليه من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر اليها كل يوم ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات ـ واستمر المقريزى فى وصف عيشتهم داخل الطباق (٢) ونوه بما كانوا عليه من الأخلاق الكريمة والسيرة الطاهرة والاقبال على العلم الى ان قال ـ فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون فى سبيل الله وأهل سياسة يبالغون فى اظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى)

وعصر المماليك الشراكسة ويبتدىء من سنة ٧٨٤ هـ الى سنة ٩٢٣ هـ واولهم الملك الظاهر برقوق وآخرهم الملك طومان باى الذى شنقه السلطان سليم العثمانى على باب زويله وابتدأ بعده العصر التركى المظلم ـ وهذا ماكتبه عنهم المقريزى (٣) (ثم تلاشت الاحوال فى أيام الناصر فرج بن برقوق وانقطعت الرواتب ـ الى ان قال ـ وبقى الجلب من المماليك انما هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور خباز ومحول ماء فى غيط اشجار ـ الى ان قال ـ وصارت المماليك السلطانية ارذل الناس وادناهم وأخسهم قدراً واشحهم نفسا واجهلهم بأمر الدنيا واكثرهم إعراضا عن الدين ـ ما فيهم الا من هو ازنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب ـ لا جرم ان خربت ارض مصر والشام

(١) صحيفة ٣٤٧ من المجلد الرابع طبعة النيل

(٢) هو مايسمى اليوم بالاشلاق وكان فى عهدهم بساحة الايوان بالقلعة

(٣) ص ٣٤٧ خطط مجلد ٤ ط النيل

من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات بسوء ابالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف اولى الامر

فاذاً يضح لنا من ذلك ان عصر المماليك البحرية غير عصر المماليك الشراكسة وأن الأولين يمتازون عن الآخرين أدبا وعلما وخلقا وإذا أعطينا ما ذكره المقريزى فى مواضع كثيرة من خططه حقه فى الثناء على من حبهم العلم واكرامهم أهله واقبالهم على تشييد المدارس التى نراها للآن قائمة فى انحاء القاهرة فاننا لا ننسب عدم ازدهار العلوم والآداب الى شىء من اخلاقهم البته — وان كان فيهم ظلم وجور فانه يكاد ان يكون قاصرا عليهم وفيما بينهم

ويزيد المقريزى فى انهم كانوا يعظمون العلماء ويوقرونهم ما ذكره الرحالة ابن بطوطه فقد قال فى كلامه عن القضاة فى مصر (ومنهم قاضى قضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريرى وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الحق لومة لائم وكانت الامراء تخافه ولقد ذكر لى ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه انى لا اخاف من أحد إلا شمس الدين الحريرى)

وذكر المقريزى طرفة من اخباره يستشهد بها على سخاء القوم على الشعراء فقال (١) ان الامير سيف الدين صرغتمش الناصري رأس النوبه أنشأ فى سنة ٧٦٧ مدرسة فى قطايع ابن طولون ودعا الامراء والقضاة ومشايخ العلم الى افتتاحها — الى ان قال — وخلع فى هذا اليوم على القوام خلعة سنية وأركبه بغلة رائعة وأجازه بعشرة آلاف درهم على أبيات مدحه بها فى غاية السماجة — وذكر المقريزى الابيات كلها — ونكتفى منها بقوله

هذا صرغتمش قد سكبت ... ايام امارته السحبا
وازال الجدب الى خصب ... والضنك الى رغد قلبا
باعانة جبار ربى ... ذى العرش وقد بذل النشبا
ملك فطن زكن لسن ... حسن بسن ربى الادبا

(١) ص ٢٥٦ ج ٣ خط مقريزى

ومن الاسف ان المجال فى هذه الرسالة لايتسع الى سرد آثار المماليك البحرية كلها ونكتفى بان نعترف لهم بانهم أعادوا للاسلام هيبته وزادوها عما كانت عليه فى عصر صلاح الدين

وكما وجه ملوكهم اهتمامهم الى انشاء المدارس والمساجد فانهم لم يتوانوا عن تحسين حالة الرى وانشاء الطرق الزراعية وفى تشييدهم لقنطرة ابو المنجا بجوار بلدة شبرا — لاكبر دليل على معرفتهم باصول الرى وحذقهم فى علم الهندسة. وهذه القنطرة يعدها المهندسون أول عمل كبير عمل لاصلاح الرى قبل القناطر الخيرية

ولم يبق الا أن أظهر الفرق بين أسباب إنتشار العلوم فى الامم ونبوغ الافراد: فأما انتشار العلوم فانه يرجع الى الحكومات وتضافر الامم معها واما نبوغ الفرد فانه يرجع إلى نفسيته واستعداده فلا الظلم يمنع النبوغ ولا العدل يساعد عليه — والتاريخ القديم والحديث ينطق بصحة مانقول ويحدثنا بأنه فى عهد حكومات الاستبداد فى الغرب والشرق نبغ شيوخ الفلاسفة وعباقرة العلماء وافذاذ الادباء

ومن العجب أن المؤرخين يطلقون اسم العصر الذهبي على العصر العباسى الذى كان محكوما بطائفة من الخدم والغلمان الذين توغلوا فى الظلم وأمعنوا فى ايذاء الخلفاء العباسيين فسجنوهم فى دورهم وتسبب عن سوء تدبيرهم تمزيق الدولة الاسلامية وانقسامها الى دويلات صغيرة — ويقولون مع هذا ان ملوك المماليك الذين اجملنا وصفهم تسببوا فى انحطاط العلوم والاداب ويطلقون على عصرهم عصر الجور والاستبداد

ننتهى فى ابحاثنا التى تقدمت إلى الحكم بأن تأخر العلوم وانعدام الابتكار من الاداب فى عصر المماليك يرجعان الى انطباع عقلية الشعوب على التقليد وإلى أن النفوس رضيت بالبقاء تحت رايته

على ان هذا العصر لم يخل من الفوائد العلمية القيمة. ففيه نظم

ابن مالك (١) الفيته ووضع ابن منظور (٢) معجم لسان العرب فى عشرين مجلدا وهما سجلان حافظان لقواعد اللغة العربية والفاظها من اللبس والدخيل

وألف النويرى (٣) نهاية الارب فى فنون الادب فى ثلاثين مجلدا وألف العمرى مسالك الابصار فى ممالك الامصار وأما دولة الادب فكان حامل لواءها فى هذا العصر جمال الدين بن نباته وعاصره البوصيرى وصفى الدين الحلى والصفدى والشاب الظريف وابن عبد الظاهر وشهاب الدين ابن محمود الحلى وكلهم معروفون لدى طلاب الادب فى زماننا

ترجمة محمد المشهور بجمال الدين بن نباته

الشاعر المصرى

ذكر القاضى نور الدين بن حجر فى كتابه الدرر الكامنة عن المترجم له ما ملخصه

محمد بن محمد ينتهى نسبه الى عبد الرحيم بن نباته خطيب سيف الدولة بن حمدان ولد بمصر فى زقاق القناديل (٤) فى ربيع الاول سنة ٦٨٦ هـ وتوفى بالقاهرة يوم الثلاثاء من صفر سنة ٧٦٨ هـ بالبيمارستان المنصورى بعد أن اختلط ودفن بمقابر الصوفية وله من العمر ٨٣ سنه

---

(١) توفى محمد بن عبد الله ابن مالك سنة ٦٥٨ هـ بدمشق

(٢) جمال الدين بن مكرم المصرى المعروف بابن منظور توفى بالقاهرة سنة ٧١١ هـ

(٣) شهاب الدين محمد النويرى توفى سنة ٧٣٢ وقد طبعت المكتبة الملكيه معظم اجزاء هذا الكتاب

(٤) كان زقاق القناديل ملاصقا لجامع عمرو من الجهة البحرية وكان على بابه سوق الكتب الذى نقل بعد خراب الفسطاط الى القاهرة فى وكالة بالصاغه معروفة للآن بوكالة الكتبية

لزمه ابوه من صغره حلقات الفقه والحديث وتعانى الادب فمهر فى النظم والنثر ورحل الى الشام فى السادسة عشرة من عمره

وأقام بدمشق مدة تقارب الخمسين سنة وتردد الى حماه وحلب وغيرهما ومدح الرؤساء وله فى المؤيد صاحب حماه وفى ولده الافضل غرر القصائد فى المدح والرثاء وكان يشكو حاله وكثرة عياله وفى آخر الوقت أدخل الديوان وكتب فى التوقيع — واستدعاه الملك الناصر حسن الى مصر سنة ٧٦١ — وله من المؤلفات القطر النباتى — سوق الرقيق — مطلع الفوائد — الفاضل فى انشاء الفاضل — شرح رسالة ابن زيدون — رسالة السيف والقلم

نشأته

كل ماعرفته عن أبيه ماقاله ابن نباته للشيخ ابى الفضل الحافظى وحكاه الشيخ لابن حجر فذكره فى كتاب الدرر الكامنة وهو — انه دخل مع أبيه وهو شاب على ابن (١) دقيق العيد فبعث أباه فى حاجة وتركه عنده وكان الشيخ فى بيت كتبه وهو يقرأ شعراً فناوله كتابا فاذا هو فى الادب . قال — احسبه من الذخيرة لابن بسام فنظرت فيه واستغرقت لمجاء أبى ولم أشعر بمجيئه فتعجب من تمكين الشيخ اياى من النظر فى كتبه

وذكر المقريزى فى غير موضع من خططه ان زقاق القناديل اطلق عليه هذا الاسم لكثرة القناديل التى كانت تقاد على ابواب دوره وقال — انه كان يباع كل ليلة من زيت الوقود من دكان على رأس الزقاق بخمسة واربعين درهما وقال ان اهل الدرب كانوا جميعا من أعيان الناس ومياسيرهم — فيؤخذ من اتصال ابيه بابن دقيق العيد انه كان من اهل العلم . ومن سكنه فى زقاق القناديل . أنه من المياسير فاراد ان يسلك ابنه طريقه فحمله على طلب العلم وكان بطبيعة الحال يباشر

---

(١) ابن دقيق العيد قاضى قضاة الشافعية بمصر — كان جليل القدر مهابا مات سنة ٧٠٢

فى صغره اهل الزقاق — ولكن نفسه مالت إلى الادب فانكب على مطالعة كتبه وأخذ يمارس قرض الشعر ولظروف لم نقف على أسبابها سافر إلى الشام كما ذكر فى ترجمته

فنشأته لاتتعدى أنه ألزم بطلب العلم من صغره فجنحت نفسه إلى الادب فقال الشعر

حياته

لم يرد لابن نباتة فى كتب السير والتواريخ التى وضعت لعصره ذكر نعتمد عليه فى تقدير حياته وان صحت نظرية القائلين بان شعر الشاعر مرآة نفسه ودليل على حياته فانه يصح بان نأخذ بها فى التعبير عن حياته التى مضاها فى التكسب بالشعر وانه عاش ماجنا خليعا وفى آخر عمره تاب رغم انفه بعد أن ألحق بالديوان بوظيفة موقع والابيات الآتية التى أرسلها لصاحب حماه ناطقة بانه لم يدخل الديوان الا فى آخر حياته قال :

يا سائلى بدمشق عن أحوالى ... قف واستمع عن سيرة البطال
ودع استماع تغزلى وتعشقى ... ماذا زمان العشق والأغزال
طول النهار لباب ذا من باب ذا ... أسعى لعمر أبيك سعى فلال
لاحظ لى فى ذاك الا أنه ... قد خف من طول المسير طحالى
أسعى على شغل وأترك خلوة ... فأعود لا على ولا احمالى
واذا تغير مورد وقصدت لى ... صحبا وجدت الصحب مثل الآل
هذا الزمان ليس فيه خادم ... تقضى الامور به سوى مثقال
أترى الزمان يعيننى بولاية ... أحمى بها وجهى عن التسآل
زحل يقارن حالتى وقد انحنى ... ظهرى من الهم انحناء الدال
ماضر اسماعيل غوث ذوى الرجا ... لوصاننى عن هذه الاحوال

بشفاعة مقبولة تـذر الغـنى   خـبرا لمبتـدأ الرجا فى الحال
او لست غرس ندى يديه فكيف لا   تجـنى الغـراس بوابل هطـال
ياسيـدا حمت صنائعـه الورى   بعـوائد المصروف والافضال
مابعـد ديمتـك الروية ديمـة   يشـكو لها ظمـأ ذوو الاقـلال
هذى شكاية مستغيث موجـع   أنهـى قضيـته ورأيك عال

وكما يؤخذ من هذه القصيدة انه لم يلتحق بالديوان إلا فى أخريات عمـره يشاهد انه اشار بقوله .

ياسيـداً حمت صـنائعه الورى   بعوائد المصروف والافضـال

إلى ماذكر فى كتاب فوات الوفيات فى ترجمة المؤيد صاحب حماة بأنه رتب لجمال الدين محمد بن نباته الشاعر المصرى كل سنة سبعماية درهم

وأما عن زهده رغم انفه فانه يقول

رب يـوم لم أخف فيـه عقـبى   سوء حالى محقت عقـبى ذنوبى
ظاهر دون باطن مستجار   ليت حالى يكون بالمقلوب
منعتنى الدنيا حـبى فتزهـد   ت ولـكن تزهـد المغلوب

واما مجونه فقد بلغ فيه غاية التهتك ونجتزىء بذكر بعض مداعباته العفيفة

كل فعـال العـلاء يعجبنى   كأننى بالعـلاء مفتون
يحمض بالمطل حلو موعـده   فوعده سكر وليمون

* * *

وقال   أشـكو إلى الله ماأقاسى   من شدة الفقر والهوان
أصبحت من ذلة وعرى   ما فى داف سوى لسانى

وقال عن التكسب بشعره

قضيت العمر مـداحا   وهـذا يأخى الحـال
فقير الوجه والكف   فـلا جاه ولا مال

وابن نباته كان سيء الحظ مع ممدوحيه فانهم لم يكافئوه على ماقاله فيهم من القصائد الخالدة إلا بالنذر اليسير فانه القائل فى صاحب حماه

فابق عالى المحل دانى العطايا　　قاهر البأس ظاهر الأنباء

يتمنى حسودك العيش حتى　　اغتنى له امتـــداد البقاء

فكان نصيبه منه السبعمائة درهم فى السنة التى ذكرناها. وضن عليه بأن يذكره فى تاريخه بكلمة واحدة مع أنه ذكر من هم دونه فى الشعر بمراحل. ولما تولى الملك الناصر (١) حسن بن محمد الملك فى المرة الثانية استدعاه إلى مصر فأنشده قصيدة رائعة ذكر فيها شبابه وأيامه الاولى فى مصر ابتدأها بقوله

بدت فى رداء الشعر باسمة الثغر　　فعوذتها بالشمس والليل والفجر

ولو شئت قسمت الذوائب مقسما　　بطيب ليال من ذوائبها عشر

وقبلتها مصرية حلوة اللمى　　أكرر فى تقبيلها السكر المصرى

ومنها يذكرنى عهد الوفا مانسيته　　ولكنه تجديد ذكر على ذكر

زمان الصبا والقرب لا تحذر النوى　　ولكن تقضى الحال أحلى من التمر

ومنها وإنى لمشتاق إلى ظل روضـة　　على النيل اروى العيش منها عن النضر

لئن حثنى باب البريد إلى مصر　　لقد حثنى باب الزيادة فى النذر

إلى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى　　فيغنى الورى فى الحالتين عن القطر

ومنها فى المديح

لسلطان مصر الناصر بن محمد　　على كل مصر طاعة البحر والبر

---

(١) السلطان الملك الناصر حسن بن قلاوون تولى الملك مرتين المرة الاولى من سنة ٧٤٨ إلى سنة ٧٥٢ وخلع وسجن فى القلعة ثم أعيد إلى الملك فى سنة ٧٥٥ وقتل سنة ٧٦٢ وكان من أبعد ملوك المماليك همة وأقدرهم فى سياسة الدولة وله الجامع القائم للآن أمام القلعة

تجمعت الامصار فى مصر طاعة وهل تجمع الامصار الا على مصر
سلام على اسكندر الوقت ان يفح شذا الذكر عنه فالسلام على الخضر

يقول فى ختامها

احقا أرانى فى ثرى عتباته نباتا يحيى واكف المزن بالزهر
وانشدت أمداحا تقول لمن اتت مدحتك بالشعرى وغيرك بالشعر

وانقضت حياة هذا الشاعر بالاختلاط وعلى ما نظن انه تسبب عن اهمال شأنه بعد موت الملك الناصر حسن

﴿شاعريته وطريقة القاضى الفاضل﴾

حصر جمال الدين بن نباته كل مجهوده وذكائه وتفننه فى التلاعب بانواع المعانى والبديع على الطريقة الفاضلية فكان تابعا للقاضى الفاضل يسير تحت لوائه ويستمد مما كانه فبقى تحت أسر التقليد كبقية معاصريه من الشعراء

وهذه الطريقة الفاضلية التى أشرت اليها تنسب الى عبد الرحيم بن على وجده الاعلى القاضى الأشرف اللخمى العسقلانى البيسانى المصرى ولد فى بيسان سنة ٥٢٩ وأحضره أبوه إلى مصر فنشأ تحت رعاية الموفق يوسف بن الجلال صاحب ديوان الانشاء فى اواخر الدولة الفاطمية ـ ولما حضر أسد الدين شيركوه الى مصر أعجبته عبقريته فاستكتبه الى ان ملك صلاح الدين بن أيوب فاستخلصه واستوزره فكان لا يصدر أمراً الا عن مشورته وتوفى ليلة دخول الملك العادل الى القاهرة سنة ٥٩٦ هـ

وللقاضى الفاضل مكانة سامية فى الادب لا تقل عن مكانة ابن العميد وليس يخفى التشابه بين أسلوبيهما على الأدباء ولكن القاضى الفاضل يسمو مرتبة بانه عصر سلافة التورية لأهل عصره وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فيما كتبه من النثر والنظم من مخترعاته ومنها قوله

أما الثريا فنعل تحت أخمصه وكل قافية قالت لذلك طأ

وقال

بالله قل للنيـــل عنى اننى | لم أشف من ماء الفرات غليــلا
وسل الفرات فانه لى شـاهد | ان كان طرفى بالبكاء بخيلا
يا قلب كم خلفت ثم بثينــة | واظن صبرك ان يكون جميلا

ومن تلاعبه بقلب المعانى قوله

تراءى ومرآة السماء صقيـــلة | فأثر فيها وجهه صورة البـــدر

ومن بديع منثوره الذى لا يتيسر لغيره ما كتبه الى الملك الافضل ملك دمشق ابن صلاح الدين ردا على كتاب ينسب اليه فيه السعاية بالوقيعة بينه وبين أخيه العزيز ملك مصر جاء فيه (فانى لا أدخل بينكما إلا كالنسيم بين الاغصان يعطف بعضها على بعض أو كالمرود بين الاجفان يرد اليها ما تفاقد منها من النور والغمض)

ومن هذه الينابيع العذبة الصافية كان يغترف شاعرنا ابن نباته ولكن نظر القاضى الفاضل كان يتبع فكره الذى لايتعب من التحليق فى السماء العالية والاشراف منها على جمال الطبيعة وأما ابن نباته فانه مع فكره وخياله تقيد بقيد من حديد وأسند الى سارية فى احدى دور الكتب فلا تجد له معنى الا وكانت مقيدة فى كتاب

ورأيناه يخرج أياما للصيد مع المؤيد صاحب حماه ويدعى لعمل ارجوزة يصف فيها المشاهد التى رآها فقال منها

واقبلت مواكب الطيور | على طروس الجو كالسطور
فبذا السطور فى المهارق | منقوطة الاحرف بالبنادق

فلم يزد على جعل السماء صفحة كتاب والطيور سطورا نقطتها البنادق التى يرميها بها الصائدون

والارجوزة من حسناته ولكن الشاعر لم يشأ ان يدنى فيها الكتاب

﴿ ابن نباته والسياسة والبيئة ﴾

لولا ان وزارة المعارف فرضت الكلام عن السياسة والبيئة وتأثيرهما فى تكوين الذين تفرض دراستهم على الطلبة من نابهى العصور المتقدمة لاضربت صفحا عن الكلام عليهما فى هذه الرسالة وذلك رحمة بشاعرنا فقد عاش فى عصره مغمضا عينيه سادا أذنيه عن كل ما يجرى حواليه من فتن وحروب وغارات ومجاعات ووباء لأنه سافر من مصر إلى الشام فى السنة التى جهز فيها الملك الناصر بن قلاوون جيوشه وسافر بها الى الشام وطرد منها التتار وعاش فى دمشق فى السنة التى سميت بالسنة الحمراء لما عاناه الناس فيها من الغلاء والطاعون

فكأنى بابن نباتة اخذ على نفسه عهدا ان يعيش شاعراً مداحا كلفا بالتورية والتضمين واما ماعدا ذلك فلا يعرفه

﴿ تحليل احدى قصائده ﴾

قال القصيدة الآتية فى الافضل بن المؤيد فى حياة والده وكان يلقب فى صغره بالمنصور

ملى الحسن حالى الوجنتين متى يقضى وعود الوصل دينى
ابثك ان عاذلى المدنى رآك بعين حب مثل عينى
فحاكى قلبه قلبى خفوقا وحكت الهوى فى الخافقين

لم اتخير هذه القصيدة لأنها أبلغ ماقال الشاعر من الشعر واسهله بل لانى وجدته يتوخى فيها الرنين الموسيقى ويلتزم التورية فى غالب أبياتها

وابتدأها بشىء من ظرفه — بان يطلب من ملى الحسن حالى الوجنتين — قضاء وعوده ولست اعرف ماهي تلك الوعود التى وعد بها ابن نباته وموطل فى أدائها — وأخذ يشكو اليه من ينافسه فى حبه ويطلب تحكيم الهوى بينه وبين ذلك المنافس

لمثل هواك تجنح كل نفس وتسطع كل ناظرة بعين
صددت فما الامى عندى بقل ولا دمعى بدون القلتين
ولا جلد على انكار دهر رمى قلبى الوحيد بفرقتين
مضى المحبوب ثم مضى شبابى وأى العيش يصلح بعد زين
هما هجرا على رغمى فارخ حديث تلهفى بالهجرتين

واراد ابن نباته ان يبرر حبه لمحبوبه فقال ان كل النفوس تجنح اليه ولايكون ذلك طبعا الا لفرط جماله وقال ان صدود المحبوب اذاقه الاسى وابكاه وانه لايصبر على استنكار دهره له ورميه قلبه الوحيد بفرقتين — فراق محبوبه — وذهاب شبابه — والعيش لايصلح بدونهما — وانهما خلفاه يتلهف عليهما الي الأبد — ويؤرخ بدأ هذا التلهف بهجرة المحبوب وهجرة الشباب

***

بروحى عاطر الانفاس ألمى رشيق القد ساجى المقلتين
يهز مثقفا من معطفيه ومن جفنيه يجذب مرهفين
له خالان فى دينار خد تباع له القلوب بحبتين
وحول نقا سوالفه عذار كما شعرت نقوش فى لجين
اظل اذا نظرت لوجنتيه ازه فى النقا والرقتين

وابن نباته يفدى محبوبه العاطر الانفاس ذا الشفة اللمياء الرشيق القد الناعس المقلتين الذى يهتز كاهتزاز الرمح ويسل سيفين مرهفين من جفنيه ولهذا المحبوب خد فى صفاء الدينار وبهجته يزينه خالان وتباع له القلوب بحبتين

«وقال ابن حجة فى خزانة الأدب فى كلامه عن التورية

وأحسن ماوقع فى هذا الباب للشيخ جمال الدين بن نباته أنه لما قال الشيخ صلاح الدين الصفدى

بروحى خده المحمر اضحت عليه شامة شرط المحبة
كان الحسن يعشقه قديما فنقطه بدينار وحبه

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال لا اله إلا الله سرق الشيخ الصفدى كما يقال من الجبتين حبه »

وكأن عذاره نقوش منمنمة فى صفاء من الجبين فيبقى الشيخ ابن نباته ينزه طرفه فى النقا والرقمتين أى بين السوالف والخالين

***

فيالله من غصن فريد ... وفى خديه تلك الجنتين

أما وحباب مبسمه المفدى ... على معسول كأس المرشفين

لقد عذبت موارده ولكن ... ندى المنصور أحلى الموردين

وكان للشيخ أن يعتز بمحبوبه فشبهه بالغصن الفريد وصور جنة فى كل واحد من خديه وكان الشيخ يصيب كل الاصابة إذ جعل محبوبه فى الجنة وجعله من الولدان المخلدين وأما جعله الجنة فى خدى محبوبه فليس من الحسن فى شىء ثم أقسم بحباب مبسمه ومعسول ثغره أن ندى الملك المنصور أحلى وأعذب منهما مورداً

***

ندى ملك له فى الملك جد ... وجد فهو عدل الشاهدين

يمد بساعدين إلى المعالى ... ويتعب فى النوال براحتين

كثير السعى فى شرف ومجد ... قليل الشكو من ضجر وأين

كأن هواه فى حب العطايا ... يطالبه بدين لا بدين

إذا ما أشرقت خداه بشراً ... فعوذه برب المشرقين

يقول ابن نباته أن الملك المنصور ورث الكرم عن جديه فان بيته ينتهى من النساء إلى الملك العادل ومن الرجال إلى قطب الدين بن أيوب ولذلك يرى الشاعر أن ممدوحه يمد بساعدين إلى المعالى ويعمل فى الكرم بيدين وأنه لا يضجر ولا يشكو ويدأب على السعى لكسب الشرف والمجد، وكأن حبه للعطايا واجب دينى يتحتم عليه قضاءه وهو لا يدين لغيره بمعروف فاذا ما القيته وأشرقت عليك سماحة وجهه فعوذه برب المشرقين

***

وأن حمل السلاح ليوم حرب — فقل فى الليث ماضى الماضغين
يهش السيف فى يمناه عجباً — ويبسم بالمنان الرديني
ورب طلوب حلم قد دعاه — فعاد بلين الاخلاق لين
بأروع ناصرى الذكر ماف — رواية فضله مثقال رين

والممدوح فى يوم الحرب يشبه الليث الحاد الناب ويلمع السيف فى يمينه ويضحك الرمح فى يساره فاذا مااستجير واستعطف لانت أخلاقه وعم فضله ويصفه بالتنزه عن النقائص

***

يصيخ للفظ مادحه بأذن — وينعم من خزائنه بعين
ويجمع بالثنا والاجر دينا — وآخرة فيرضى الضرتين
على حين الشبيبة فى اقتبال — وفرع الملك زاهي المعطفين
يقل لذكره الاقيال قدماً — وكيف يقاس ذوزين بشين
فلا تتبع لتبع ذكر جور — ودعنا من رعونة ذى رعين
أقام محمد للفضل شرعا — محا ما كان من شك ومين
واردف حسن خلق حسن خلق — فلم يقنع باحدى الحسنيين

والمنصور يستمع لمادحه باذن ويدير الى الانام من خزائنه بعين ويثنى على الشاعر فيجمع بين الثناء والأجر فيرضى بذلك الدنيا والآخرة وهما فى نظر الشاعر ضرتان ويفعل الممدوح هذا الفعل وهو فى ميعة الشباب وأبهة الملك ولايذكر بجانب اسمه اسم ممن تقدم من الاقيال لأنهم لايدانونه فى كماله ، فتبع لايذكر إلا بالجور كما لايعرف ذورعين إلا بالرعونة، وأما محمد ممدوحه فقد أقام للفضل شرعا لاشك فيه ولا مين . وجمع بين جمال الخلق وحسن الخلق ، لأنه من الذين لايقنعون بأحدى الحسنيين

***

كذا فليبق فى أفق المعالى ووالده بقاء الفرقدين
أصوغ له مدائح لم يصفها على سيف العلا نجل الحسين
واطلق فيه الفاظا تسامت على الفاظ رهن المحبسين

وختم القصيدة بدعائه للممدوح وأبيه بطول العمر ويقول انه صاغ له مدائح لم يقلها المتنبى فى سيف الدولة بن حمدان وتقصر عن سمو الفاظها الفاظ أبى العلاء المعرى وليست هذه القصيدة أجود قصائد ابن نباته وانما اخترناها لأنَّ فيها مايمثل ولعه بالمحسنات البديعية كما قدمنا ويشاهد أن كل بيت فيها لايخلو من تورية أو زخرف لفظى غير التورية وفوق هذا فقد يغلب عليها الرنين الموسيقى الذى أشرنا اليه فى صدر الكلام

حنينه إلي مصر

مكث ابن نباتة فى الشام حوالى خمسين عاما لم يهدأ له فيها حنين الى مصر قال

ماأنس لاأنس لقيانا وقد غفلت عين الهوى عن قرير العين طماح
قابلت شعرك بعد الوجه ملتفتا فأنعم الله امسائى واصباحى
حيث الرضا فى جبين الصب مكتتب أيام لم يمح أستار الصبا ماح
وحامل الكأس تحت الدجن يحملها كأنه مدلج يمشى بمصباح
والغيم دان لكأس الراح يمزجها يكاد يمسكه من قام بالراح
والآن كأسى دموعى والتذكر إن أعيا التذكر تشدو شدو مفداح
ياعنبر الخال فى ريحان سالفه هل باب عيشى مسرور بمفتاح
وهل الى أرض مصر زورة لشج بسائل من دموع الشوق ملحاح
وهل أباكر بحر النيل منشرحا فأشرب الحلو من أكواب ملاح

نرجع ونقول ان ابن نباته فى حنينه الى مصر يفك عن نفسه تلك القيود التى تقيد بها وتنهض به العبقرية فتجعله يعرف كيف يهز العواطف وكيف يجعل الحنين الى الوطن يملك المشاعر ويجعل الدمع يترقرق فى العيون، فتالله لايقرأ مصرى قوله

وهل أباكر بحر النيل منشرحا فأشرب الحلو من أكواب ملاح

الا ويتمنى أن يكون ابن نباته على قيد الحياه فيقبله فى فه الذى خرج منه هذا السحر . ويقول

اعد لنا السمر الاشهى نجدده دار النحاس ونادى الشط والنادى
ترى سفائنه كالعيس سائرة والضب والنون والملاح والحادى
وروضة العيش فى العلياء آنفة ما واصلت بين إتهام وانجاد
ثلاثة تعطف الدنيا على بها أوطان أنسى واحبابى واعيادى

وقوله

ماضر بسام البروق لوانه يروى حديث جواى عن عباس
برق له بالشام نيل مدامع يجريه ذكر منازل المقياس
سقيا لمصر منازلا معمورة بنجوم أفق أم ظباء كناس
وفدى لها من بلدة كم نثرة فيها لأسراب الدموع أقاسى
وطن له سهرت وشابت لمتى ونم على عينى هواه وراسى
من لى به والحال ليس بآسن كدر وعطف الدهر ليس بقاسى
والطرف يستجلى غزالا آنسا بالنيل لا ثورا على باناس
والعيش حلى طالما خطرت به أعطاف كل مهفهف مياس
ثم انقضى ذاك الزمان وما بقى من حليه عندى سوى الوسواس
بالرغم إن قامت مآتم بعده عندى وفاز سواى بالأعراس

هام شعراء الشرق بحب دمشق وضواحيها وأغرقوا فى وصفها كل الاغراق وأما ابن نباتة فأنه يقول هذه الابيات بعد أن مكث فى دمشق ثمانية وثلاثين عاما يمدح بعدها تقى الدين السبكى قاضى قضاة دمشق بقصيدة رأيناه يقول منها

والطرف يستجلى غزالا آنسا بالنيل لا ثورا على باناس

فابن نباته عاش هذا العمر الطويل فى الشام وكان لا يخطر بفكره أن الجمال يكون فى بلد غير مصر وتصديقا لهذا القول يقول ابن نباته

قسما ما حلت عن عهد الوفاء　　بعد مصر لا ولا نيل بكائى
حبها تحتى وفوقى ويمينى　　وشمالى وامامى وورائى

وقوله

تذكرت مصرا والأخلاء والدهرا　　سقى الله ذاك السفح والناس والعصرا
وقالت ظنونى فى الشآم أدع لذة　　فقال لها ماضى الزمان إهبطوا مصرا
تقول أناس إن جلق جنة　　فما بال احشاء الغريب بها حرا

﴿ ابن نباته والمحسنات البديعية ﴾

قلنا إن ابن نباتة جعل كل ميله موجها فى شعره إلى المحسنات البديعية ، وكان غرضه منها فى الغالب يتجه الى التورية والتضمين وخزانة الادب لابن حجة الحموى على ضخامتها بناها مؤلفها على حسنات ابن نباتة فى هذين البابين

﴿ التورية وابن نباته ﴾

لا حاجة بنا إلى تعريف التورية لطلاب الادب لانهم لم يصلوا الى قراءة هذه الرسالة إلا بعد دراستهم علم البديع ولكننا لانجد لنا مندوحة عن ذكر تاريخ التورية فانها وردت عفوا فى شعر الأوائل ولما عنى بها القاضى الفاضل واتخذها مع التضمين والاقتباس ديدنا فى نثره ونظمه ، جعلها خلفاؤه من الأدباء الغاية السامية التى يرمون اليها

ولنا رأى فى التورية أنها قد انتقلت من الزجل إلى الشعر بعد أن فشى الزجل فى أدب العامة وانتقل من الاندلس إلى الشرق بعد العصر الثانى العباسى وذاع فى بغداد وفى مصر أيام عهد عصر الفاطميين ، ولم نجزم بهذا الرأى الا بعد روية وبحث دقيق فى كتب التاريخ والسير والتراجم

وأمام هذه الصناعة هو القاضي الفاضل كما اسلفنا . فمن قوله فى التورية

وكنت وكنا والزمان مساعد ... وصرت وصرنا وهو غير مساعد
وزاحمني في شرب ريقك شارب ... ونفسي تأبى شركها في الموارد

وجاء بعده القاضي السعيد بن سناء الملك ومن حسناته فيها

أما والله لولا خوف سخطك ... لهان علي ما ألقى برهطك
ملكت الخافقين فتهت عجبا ... وليس هما سوى قلبي وقرطك

وجاء بعدهما السراج الوراق وابو الحسين الجزار فأبدعا فيها غاية الابداع ـ

فمن مداعبات السراج قوله

دع الهوينا وانتصب واكتسب ... واكدح فنفس المرء كداحة
وكن عن الراحة في عزلة ... فالصفع موجود مع الراحة

وقال الجزار

كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ ... ـت حفاظا وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيـ ... ـني وبالشعر كنت ارجو الكلابا

ثم ظهر بعدهم مجير الدين بن تميم ومن تورياته قوله

لم لا أميل إلى الرياض وحسنها ... وأعيش منها تحت ظل ضاف
والزهر يلقاني بثغر باسم ... والماء يلقاني بقلب صاف

وظهر بعد ذلك الوداعي ويقول عنه ابن حجة (ومع علو قدر الشيخ جمال الدين بن نباته وهو الذي مشت ملوك الادب قاطبة بعد القاضل تحت اعلامه تطفل على نكت الوداعي ومعانيه)

وذكر ابن حجة جملة مقاطيع في التورية للوداعي وعقبها بمثلها للشيخ جمال الدين بن نباته

قال الوداعي

إذا رأيت عارضا مسلسلا ... في وجنة كجنة ياعاذلي

فاعلم يقيناً انى من أمة | تقاد للجنة بالسلاسل
أخذه ابن نباته وزناً وقافية فقال
أفدى الذى ساق اليها مهجتى | فرع طويل تحت حسن طائل
قلبى بصدغيها إلى طلعتها | يقاد للجنة بالسلاسل

وأما ابن نباتة فانه أكثر من التورية ولو تعمدنا حصر ماعقده منها لأربى على جميع مايؤثر عمن تقدمه من فحولها ولكن التورية لها حلاوة فى المجون ووقع جميل فى الداعبات المكشوفة لانستطيع أن نذكر أونورد شيئاً منها فى هذه الرسالة ومهما تدق الشاعر فى حبك التورية العفيفة فانها لاتهز العواطف كما تهزها فى المداعبات والمجون

ومن حسنات شاعرنا التى نستطيع أن نذكرها هنا قوله فيها

وأغيد جارت فى القلوب لحاظه | واسهرت الاجفان أجفانه الوسنى
أجل نظراً فى حاجبيه وطرفه | ترى السحر منه قاب قوسين أو أدنى

وقوله

بروحى مشروط على الخد أسمر | دنا ووفا بعد التجنب والسخط
وقال على اللثم اشترطنا فلا تزد | فقبلته ألفاً على ذلك الشرط

ومنها قوله

ياواصف الخيل بالكميت وبالنهـ | ـد أرحنى من طول وسواسى
لانهد الامن صدر غانية | ولا كميت الامن الكاس

ومما صاغه من النكت العامية قوله

وتاجر قلت له اذرنا | رفقاً بقلب صبره خاسر
ومقلة تنهب طيب الكرى | منها على عينك ياتاجر

ومنها

وكنت أظن العشق يترك مهجتى | إذا زاحم الشيب الشباب بمفرقى

فلما بدا مع أسود الشعر أبيض أتى العشق يغزونى على الف ابلق

وقال فى وصف جواد

وادهم اللون حندى فى جريه للورى عجائب
يقصر سعى الرياح عنه فكلها خلفه جنائب

ومن حسناته فى المدح قوله

والله ماعجبى لقدرك أنه قدر على باغى مداه بعيد
إلا لكونك لست تشكو وحشة فى هذه الدنيا وأنت وحيد

ومن لطائفه

ميزانى العاطل المحلى قال له الفقر قف مكانك
لاتذكر المال عند هذا ولا تحرك به لسانك

وقال يصف حالته

لقد أصبحت ذاعمر عجيب اقضى فيه بالانكاد وقتى
من الأولاد خمس حول أم فواحرباه من خمس وست (ى)

« ابن نباته والايداع » أو « التضمين »

الايداع قديم فى كلام الشعراء ولكن المسالك التى سلكها فيه ابن نباتة تصعب على غيره وقدهم غير واحد من الشعراء فى مجاراته فاخفقوا فمن ذلك تضمينه انجاز ملحة الأعراب وتحويله معانيها النحوية إلى الغزل والمدح قال

صرفت نعلى فى الأسى وقولى بحمد ذى الطول الشديد الحول
أفدى غزالا مثلوا جماله فى مثل قد أقبلت الغزاله
وقال مذ ملك قلبى واسترق كقولهم رب غلام لى أبق
للقمرين وجهه مطالع فهى ثلاث مالهن رابع
لأحرف الحسن على خديه خط وقال قوم إنها اللام فقط

متفرد بالحب فى دار الهنـا   مثـــاله الدار وزيد وانا
لا يختشى ملاعب الظنون   والأمر مبنى على السكون
فى خده التبرى هان نشبى   وقيمة الفضة دون الذهب
فصرف عليها ثروة تستام   فما على صارفها مـــلام
وإن رأيت قده العالى فصف   وقف على المنصوب منه بالالف

واستمر ينظم هذه الدرر الغالية مفتنـا من جميل الى جميل حتى وصل الى المديح فقال

دونك والمدح ذكيا معجبـا   نحو لقيت القاضى المهـــذبا
ذوالجود والعلم عليه ارمى   وهكذا أصبح ثم أمسى
يقول للضيف نداه جب وجل   ومثله ادخل وانبسط واشرب وكل
إن قال قولا بين الغرائبا   وقام قس فى عكاظ خاطبـا
وإن سخا أتى على ذى المدد   والكيل والوزن ومزروع اليد

ومن تضميناته الرائعة — ماأجاب به الشيخ صلاح الدين الصفدى على قوله معاتبا

افى كل يوم منك عتب يسوءنى   كجلمود صخر حطه السيل من عل
وترمى على طول المدى متجنيا   بسهميك فى اعشار قلب مقتل

فأجابه الشيخ جمال الدين متهكما بقوله

فطمت ولاءى ثم اقبلت عاتبـا   أفاطم مهلا بعض هـذا التدلل
بروحى الفاظ تعرض عتبها   تعرض اثناء الوشاح المفصل

ومنها

صحبتك لا ألوى على صاحب علا   بجيـد معم فى العشيرة مخول

ومنها

وكم ناصح كذبت دعواه اذ غدت   على وآلت حلفة لم تحلل

ولحيــة لاح غاظها ضحــكى على | أثيث كقنو النخـلة المتعثكل
ترى بعر الآرام فى عرصاتها | وقيمانهـا كأنه حب فلفـل
نزعت لسكرى ساحبا من صبابتى | على إثرها أزيال مرط مرحـل
إلى أن تبدى عذره متمطيا | وأردف أعجازا وناء بكلكل
فلاطفتــه فى حالتيــه ولم أقـل | فسلى ثيابى من ثيابك تنسـل

﴿ التورية والادب المكشوف ﴾

قلنا إن التورية انتقلت من الزجل أو من أدب العامة أى من النكتة العامية إلى الشعر فكانت فكاهة الماجن ودعابة المداعب وتورية الاديب وكانت جسراً يعبر منها الاديب الى الصراحة وقد فشت النكتة عند الغربيين بعد الثورة الفرنسية ولكن تنافس الأدباء فى العصر الاخير أخذ يتجه الى تصوير الحقائق كما هى واتسع الميدان وظهر فيه جماعة يدعون الى الادب المكشوف لعجزهم عن معاريض الكلام ولهم اذناب ظهروا بيننا فى مصر يقولون كما أنه لاحياء فى العلم فلاحياء فى الأدب ونرد عليهم بأصوب القول بأنه لاخير فى أدب بغير حياء ولا خير فى أدب يعري صاحبه عن الفضائل

وأصحاب الأدب المكشوف فى الغرب كدعاته فى مصر — جماعة قلت بضاعتهم وكثرت ثرثرتهم وتأفف منهم فى الغرب أدباؤه كما اصبحنا نتألم مما يذيعه أذنابهم بين شبيبتنا، ومن مدهشاتهم انهم يمزجون بين الصراحة وأدبهم المكشوف أو العارى والصراحة لاتتنافى مع الحياء وتستخدم معاريض الكلام ، وأما أدبهم المكشوف فانهم يعترفون بأنه لا حياء فيه

﴿المشهورات من قصائده﴾

لابن نباتة قصائد شهرها مؤلفو الادب فى كتبهم ووضعوها فى اعلى مراتب الشعر

فمنها ما قاله فى مدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ... ولمعة برق بالغضا تتسعر

وذكر جبين المالكية اذ بدا ... هلال الدجى والشىء بالشىء يذكر

سقى الله اكناف الغضا سائل الحيا ... وان كنت اسقى ادمعا تتحدر

ويعد الادباء هذا القول من الغزل المؤدب المناسب للمقام

ومنها

ولا عيب فيها غير سحر جفونها ... وأحبب بها سحارة حين تسحر

اذا جردت من بردها فهى عبلة ... وان جردت الحاظها فهى عنتر

اذا خطرت فى الروض طاب كلاهما ... فلم يدر من أزهى وأشهى وأعطر

ومنها فى المديح

نبى اتم الله صورة فخره ... وآدم فى فخاره يتصور

نظيم اللى والأفق ما مد طرسه ... ولا الزهر الا والكواكب تنثر

ولا لعصا الجوزاء فى الشهب آية ... مجر الدجى من تحتها يتفجر

نبى له مجد قديم وسؤدد ... صميم واخبار تجل وتخبر

تحزم جبريل لخدمة وحيه ... واقبل عيسى بالبشارة يجهر

ومن المشهورات قوله يمدح المؤيد صاحب حماه

قام يرنو بمقلة كحلاء ... علمتنى الجنون بالسوداء

رشأ دب فى سوالفه النمـ ... ـل فهامت خواطر الشعراء

ومنها ما قاله فى مدح ابن فضل الله كاتب السر بالديار المصرية ويعارض بها قصيدة ابى الطيب المتنبى

بابى الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلاببا

***

عطفت كامثال القسى حواجبا ... فرمت غداة البين قلبا واجبا

بلواحظ يرفعن جفنا كاسرا ... فتثير فى الاحشاء هما ناصبا

يقول منها

من كل ماردة الهوى مصرية   لم تخش من شهب الدموع ثواقبا
لم يكف ان شرعت رماح قدودها   حتى عقدن على الرماح عصائبا

ويعجبنى فيها هذا الحنين الى مصر وما فيها من الجمال

بأبى الخدود العاريات من البكى   اللابسات من الحرير جلاببا
النابتــات بأرض مصر ازاهرا   والزاهرات بارض مصر كواكبا
آها لمصر وأين مصر وكيف لى   بديار مصر مراتعا وملاعبـا
حيث الشبيبة والحبيبـة والوفا   فى الأعربين مشاربا واصاحبا
والطرف يركع فى مشاهد اوجه   عقدت بها طرر الشعور محاربا

وقال فى كمال الدين بن الزملكانى كاتب السر بدمشق

قفى وما قضيت منكم لبانات   متيم عبثت فيه الصبـــابات
ما فاض من جفنه يوم الرحيل دم   الا وفى قلبه منكم جراحات

قال فيها

ورب حانة خمــار طرقت ولا   حانت ولا طرقت للقصف حانات
سبقت قاصد مغناها وكنت فتى   الى المدام له بالسبق عادات
اعشو الى ديرها الاقصى وقدلمعت   تحت الدجى فكأن الدير مشكاة
واكشف الحجب عنها وهى صافية   لم يبق فى دنها الا صبابات
راح زحفت على جيش الهموم بها   حتى كان سنا الاكواب رايات
وبت اجلو على الندمان رونقها   حتى لقد اصبحوا من قبل ما باتوا
مصونة الدير ماتت دون غايتها   حاجات قوم وللحاجات اوقات
تجول حول اوانيها اشعتهــا   كانما هى للكاسات كاسات
وتصبح الشرب صرعى دون مجلسها   وهى الحياة كان الشرب اموات
تذكرت عند قوم دوس ارجلهم   فاسترجعت من رؤوس القوم ثارات

واستضحكت فلها فى كل ناحية ... دبات حسن وفى الآناف هبات

كأنها فى أكف الطائفين بها ... نار تطوف بها فى الارض جنات

من كل أغيد فى دينار وجنته ... توزعت من قلوب الناس حبات

مبلبل الصدغ طوع الوصل منعطف ... كأن أصداغه للعطف واوات

ترنحت وهى فى كفيه من طرب ... حتى لقد رقصت تلك الزجاجات

هذه الأبيات مع كثرة مافيها من المحسنات البديعية فأنها تأخذ بأب القارىء لرقتها وسهولتها ولطف معانيها

وقال فى الشهاب محمود كاتب السر بمدينة حلب

فى الريق سكر وفى الاصداغ تجعيد ... هذى المدام وهاتيك العناقيد

الراح ريقة من أهوى ولا عجب ... إن راح وهو على العشاق عربيد

تأتى على أبلق الحاظ مقلته ... فهن بيض وفى أحشائنا سود

ماأعجب الحب يلقانى بسفك دمى ... على النقا وهو محبوب ومودود

كأنه صنم فى الحب متبع ... هذا وما فيه إلا القلب جلمود

وقد حاول كثير من الشعراء مجاراة هذه القصيدة فأخفقوا

وقال فى تاج الدين بن السبكى

واحيلتى بظلام الطرة الداجى ... واشقوتى بنعيم الملمس العاجى

ويا ضلال رشادى فى هوى صنم ... لاشىء أمتك لى من طرفه الساجى

ويعد هذا المطلع من أبرع المطالع وأحلاها وقد تخلص إلى المدح تخلصاً مرقصاً قال

إيها عذولى وباعد فيه عن بصرى ... فما أظنك من سيل البكى ناجى

قد أسرج الحسن خديه فدونك ذا ... سراج خد على الأكباد وهاج

وألجم العذل وار كض فى محبته ... طرف الهوى بعد إلجام وإسراج

وقسم الشعر فاجعل فى محاسنه ... شذر القلائد وأهد الدر للتاج

***

وقال يمدح الأفضل صاحب حماة وقد تحدى فيها قصيدة المتنبى

أرق على أرق ومثلى يأرق　　وجوى يزيد وعبرة تترقرق

***

مابت فيك بدمع عينى أشرق　　إلا وأنت من الغزالة أشرق

يامن تحكم فى الجوارح حسنه　　فالقلب يؤسر والمدامع تطلق

يقول فيها

قسما بمن جعل الأسى بك لذة　　والدمع راحة من يحب ويعشق

إن العذول هو الغبى وإن من　　يفنى عليك حياته لموفق

لى من نصيب هواك سهم وافر　　وسهام سحر من جفونك ترشق

يمتار من دمعى عليك ذوو البكا　　فاعجب له من سائل يتصدق

ومنها ينعى شبابه

سقيا لأوقات الشبيبة إنها　　أوفى لمطلب السرور وأوفق

ماسرنى ان الكميت تحثها　　نحوى السقاة وإن فودى ابلق

وقال يمدحه وفيه من بليغ التضمين وبديع التخلص ماانفردت به شاعريته عن معاصريه

عنى بكأسك يانديم فان لى　　جفنا مدامعه ارق وأروق

زال الصبا ونأى الحبيب فعادنى　　أرق على أرق ومثلى يأرق

وكأن عينى راحة ملكية　　حلف النوال بأنها لاتطبق

وقال فى ابن فضل الله كاتب السر بالديار المصرية وكلها من السكر النباتى المصرى

خليلى من مصر قفا نبك فى السبك　　على عيشنا بالنيل فى فلك الفلك

على مصر والهفى على مصر لهفة　　يهيج بها قلب المشوق على السبك

وياطربى فيها إلى سود اعين　　على مثلها فى كل داجية أبكى

وقال يمدح الملك المؤيد ملك حماه

نفس عن الحب ماحادت ولا غفلت　　بأى ذنب وقاك الله قد قتلت
وعين صب الى مرآك قد لمحت　　كفى من الدمع والتسهيد ماحملت
يقول منها هذا السحر الحلال

من لى بألحاظ ظبي تدعى كـلا　　وكم ثياب ضنا حاكت وكم غزلت
وسمرة فوق خديه ومرشفه　　هذى تروت مجانيها وذى ذبلت
اما كفانى تكحيل الجفون أسى　　حتى المراشف ايضا باللمى كحلت

وقال يمدح ابن فضل الله العمرى

رمى حشاى وياشوقى إلى الرامى　　لحظ برامة من الحاظ آرام
رهنت فى الحب نومى عند ناظره　　لما اقترضت لجسمى منه اسقامى
سقيا لمعهد انس كان يسندلى　　بوجه الطلق عن بشر بن بسام
حيث النسيم يجر الذيل من طرب　　والزهر يرقص من عجب باكمام
والنهر طرس يخط الريح أسطره　　والقطر يتبع ماخطت باعجام
الى ان قال يشكو زمانه

شهور وصل كساعات قد انقرضت　　عن أحب وأعوام كأيام
ولت كأنى منها كنت فى سنة　　ثم انبرت لى ايام كأعوام
مقلقلا بيد الايام مضطربا　　كأنما استقسمت منى بازلام
قد حرمت حالتى طيب الحياة بها　　كأن طيب حياتى طيب إحرام
هي المقادير لا تنفك مقدمة　　وللحجى خطرات ذات إحجام

﴿ قصائد ابن نباته القصيرة ﴾

لابن نباته جملة قصائد لايزيد عدد ابياتها عن السبعة . نسجها على منوال القصائد الطويلة ففيها المطلع ويكون غالبا فى الغزل وفيها التخلص الى المدح وفيها الاشارة الى ما دعاه الى قولها ولم نر هذا النوع القصير من القصائد إلا فى شعر شهاب الدين ابن أبى حجله وكان من المعاصرين لابن نباته ولم نعرف من الذى بدأ منهما بهذا النوع. وكان بينهما تراسل بالنثر والنظم ويدعو كل منهما الآخر بشيخى فلان فكانا يتقارضان

المديح ولكن ابن أبى حجلة وضع كتابا اسماه السكردان جمع فيه من الآثار والحوادث كل مايصل عدده الى السبعة فلعله من هذا القبيل يكون السباق الى هذه القصائد القصيره

قال ابن نباته يمدح عز الدين موسى كاتب السر بدمشق

سقى عهد ليلى مدمع وسحائب ... تجر صبا من خلفها وجنائب
وحيا زمان الوصل اذ اوجه الدمى ... قناديل حسن والشعور محارب

ليالى وفا ليلى صديق ملازم ... كما للتقى والبر فى الشام صاحب
مرجية اقواله وفعاله ... ولا غرواذ ترجى لديه الرغائب

تنبه فى الامر المهم يراعه ... فاغنى ونامت فى الجفون القواضب
وقال الورى من ذا الذى انت مادح ... براعته حيث التقى والمواهب

فقلت لهم موسى الزمان وهذه ... عصاه التى للملك فيها مآرب

وقال يمدح الملك الناصر حسن بن قلاوون

عجبت من طرفى وخد المليح ... كلاهما هذا بهذا جريح
هذا دم الراح به واقف ... وذادم الادمع فيه يسيح

تغزلى المنظوم فيه وفى ... سلطاننا الناصر نظم المديح
فى دعة الله وفى حفظه ... مسراك والعود بعزم نجيح

ياموعدا منه بقرب اللقا ... قابلتنا اليوم بصبح صبيح
لوجازان تسلك اجفاننا ... اذا فرشنا كل جفن قريح

لكنها بالبعد معتلة ... وانت لاتسلك غير الصحيح

المدح

رأيت أن أعيد هنا ما كتبته فى رسالتى عن مهيار الشاعر فى باب المدح وهو (المدح من أخطر ضروب الشعر معاناة على الشاعر . وهو الصخرة الملساء التى لم يقوعلى تسلقها من شعراء الامم جميعها الا العدد القليل . لان المدح يحتاج الى المحاكاة الصحيحة الصادقة فالمبالغة والتشبيه بغير الموجود لايفيدان الفائدة

المطلوبة وكذلك المعانى الشائعة مهما جودت لها الالفاظ فانها لاتهز الممدوح ولا تشيدبه ولا تدعوا الى اعجاب السامع بها)

وابن نباتة مع نبوغه فى التلاعب بالمعانى الشائعة . وتجويده سبكها فى قوالب التورية الظريفة. واخراجها بملاحة ومهارة فى تضميناته مما وضعت له الى ما اراده منها. فانه لم يستطع ان يسمو بشعره فى المدح إلى المرتبة السامية

وقد اخترنا من مدائحه مايأتى :

قال يمدح المؤيد صاحب حماه

يابن الملوك الاولى لولا مهابتهم ... وجودهم لم يطع دهر ولم يطب
الجائدين بما نالت عزائمهم ... والطاعنين الاعادى بالقنا السلب
والشائدين على كيوان بيت علا ... تغيب زهر الدرارى وهو لم يغب
بيت من الفخر شادوه على عمد ... وبالمجرة مدوه على طنب

وقال يمدح كمال الدين بن الزملكانى كاتب السر بدمشق

ماروضة قلدت احياء سوسنها ... من السحاب عتودا لؤلؤيات
وخطت الريح خطا فى مناهلها ... كأن قطر الغوادى فيه جريات
وللجداول تصفيق بساحتها ... والقطر روض وللاطيار رنات
يوما بابهج من اخلاقه نظرا ... أيام تنكر اخلاق سريات
ولا الغيوث باسخى من عوائده ... ايام تعيا السجيات السخيات
ولا الشموس باجلى من فضائله ... أيام تدجو الظنون اللوذعيات
ولا النجوم باناى من مراتبه ... أيام تقتصر الايدى العليات
قدر علا فرأى فى كل شمس ضحى ... جماله فكأن الشمس مرآة
وهمة ذكرها سار وأنعمها ... فحيثما كنت انهار وروضات

وانى اترك للطلبة والادباء المقارنة بين قول ابن نباته

قدر علا فرأى فى كل شمس ضحى ... جماله فكأن الشمس مرآة

وبين قول القاضى الفاضل

تراءى ومرآة السماء صقيلة ... فاثر فيها وجهه صورة البدر

وقال يمدح ابن فضل الله كاتب السر بالديار المصريه

وزير بلا وزر وقاض بلا هوى   وغيث بلا عيب وبحر بلا ضر
يسابقنى لفظى لوصف زمانه   وبالطبع تشدو الورق فى الورق الخضر
ويخدعه مثلى فيخدع للندى   سريعا وما والله ماهو بالغمر

وقال يمدح المؤيد

انسى المؤيد أخبار الاولى سلفوا   فى الملك مابين وهاب وفتاك
ذى الرأى يشكى السلاح الجم حدته   لذاك يسمى السلاح الجم بالشاكى
والمكرمات التى افترت مباسمها   والغيث بالرعد يبدى شقة الباكى

تقرأ هذا الشعر فيخف عليك أسلوبه وتعجب من صياغة معانيه ولا تلبث اذا مابحثت فيه عن الابتكار ان تلقيه جانبا لانك تجده خاليا منه — ولهذا السبب نصحت الطلبة فى أول الرسالة بان لايتخذوا يهزج المحسنات البديعية

《 الرثاء 》

شغلت التورية شاعرنا عن اظهار عواطف الحزن والاسى وتبدد الماثر فى رثائه وقد رأينا الادباء الذين حبذوا طريقته يشيدون بقصيدته التى انشدها الافضل ملك حماة وجمع فيها بين تعزيته فى أبيه الملك المؤيد وتهنئته بالملك — قال —

هناء محاذاك العزاء المقدما   فما برح المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع   شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما

والمعجبون بهذه الابيات لم يفتهم بهاـرى ز الافتنان) ولو امعنوا الفكر قليلا لتبين لهم أن ابن ذاته اخطأ ذاية الخطأ بتهوينه حزن الافضل على ابيه حتى محاه محوا بتولية الافضل للملك فاين هذا من قول عبد الله بن همام السلولى وهو اول من فتح باب الجمع بين التهنئة والتعزية فى بيت واحد فقد كان اكثر لباقة وأحسن أدبا من ابن نباته فانه عند ما دخل على يزيد بن معاوية ليعزيه فى أبيه ويهنئه بالخلافة قال

اصبر يزيد فقد فارقت ذاثقة   واشكر حباء الذى بالملك اعطاكا
فلا رزء أصبح فى الاقوام نعلمه   كما رزئت ولا عقبى كعقباكا

والفرق واضح بين القولين وقصيدة ابن نباته لا شيء فيها سوى الافتنان
ورأيناه لم تتركه التورية فى بكائه جارية له فقال

يقولون كم تجرى لجارية بكى ... وما علموا النعمى التى قد فقدتها
ملكت جهاتى الست فيك محبة ... فانت وما أخطا الذى قال ستها
الا فى سبيل الله شمس محاسن ... وان لم تكن شمس النهار فاختها

وقد بكى ولده عبد الرحيم بشعر كثير
قال

اقصدتنى يا زمانى ... كانى كنت قصدك
وكان ما خفت منه ... فاجهد الآن جهدك
لالينك اليوم أرجو ... ولست أرهب شدك
قبضت كف مرادى ... فاقدح بقلبى نهدك
وراح دينار خد ... عليه كم خفت نقدك

ولا يعجب القارىء من جعل ابن نباته خد ابنه ميدانا للتورية فى بكائه
فان الشيخ لو كان فى استطاعته أن يتركها فى أية مناسبة من المناسبات التى توجب تركها
لتركها فى هذا المقام. وقد حذا حذو التهامى فى قصيدته المشهورة

حكم المنية فى البرية جارى ... ماهذه الدنيا بدار قرار

فقال يرثى ولده

الله جارك ان دمعك جار ... ياموحش الاوطان والأقطار
لما كنت من التراب حديقة ... فاضت عليك العين بالأنهار
شتان ماحالى وحالك أنت فى ... زين الجنان ومهجتى فى النار

(وفى هذا المعنى قال التهامى)

جاورت اعدائى وجاور ربه ... شتان بين جواره وجوارى

ومنها

حوى بنى تراب مدمر وجلق ... كالغيم مرتكنا على أقمار

طرقت على تلك النفوس طوارق وطرت على تلك الجسوم طوارى
وبدت لدى البيدا ءعلى قبورهم علماً بأنهم على أسفار

وهذه القصيدة قالها الشاعر فى أخريات عمره ويؤخذ منها أن ولوعه بالتورية لم تنقص منه الشيخوخة

﴿ الغزل ﴾

حام ابن نباته فى غزله حول حسنات المتقدمين من الشعراء واقتطفها منهم غيلة واسترق معانيها وصاغها بطريقته البديعية التى خلبت الالباب فى زمانه وفيما بعد زمانه

وقد كان شعره ذائعا فى أغانى عصره فما كان يتغنى به قوله

ياحبيب القلب أهلا بالهوى فيك وسهلا
ماألذ الوجد عندى فى معانيك وأحلى
غزلت عيناك لى ثوب سقم ليس يبلى
فاقض ماأنت قاض لست ممن يتسلى

ومن غاراته على معانى المتقدمين قوله

ولولا الهوى مابت بالدمع غارقا عليه وأشكو للورى غلة الصدى
وألثم عطفيه وجفنيه بعدما قتلت برمح منهما ومهند
وأبصر فيما تحت صدغيه من سنا خيالى خلوقا تحت محراب مسجد
ورب مدام من يديه شربتها معتقة تدعو لعيش مجدد
إذا جئته تعشو إلى ضوء كأسه تجد خير نار عندها خير موقد
تحدثك الانفاس فيها عن الالما ويأتيك بالاخبار من لم تزود

فقد أغار ابن نباتة على أحسن بيت قاله الأعشى فى المدح وعلى خير مثل ضربه طرفة فى معلقته فقلب بيت الاعشى من المدح إلى وصف الخمر قلبا يتضاءل بجانبه بيت الاعشى . وقلب مثل طرفة من الحكمة إلى الغزل فذهب به واستحقه

الغزل عند العرب معناه مناجاة الجمال أينما كان فالشاعر يتغزل في الانسان الجميل والروضة الغناء والنسيم العليل والماء الصافي وكل ما في الطبيعة من جمال اذا وصفه الشاعر وحن اليه فالشاعر يتغزل فيه

والنسيب خاص بمحادثة النساء ومغازلتهن فشعر عمر بن أبي ربيعة ومجنون ليلى وكثير عزه وجميل وذى الرمه ومن نسج على منوالهم يقال له النسيب

وأما شيخنا ابن نباتة فانا رأيناه اذا تغزل في الولدان أطال وأغرق وقذف بعواطفه في كل كلمة من شعره واذا نسب تبحث عن عواطفه في نسيبه فلا تجدها .

قال في غزل الولدان

في مرشفيه سلاف الراح من عصره ... ومعطفيه قوام البان من هصره
وفي ابتسام ثناياه ومنطقه ... من نظم الدر أسلاكا ومن نثره

ظبي قضى كل زيد في محبته ... وماقضى من ليالي وصله وطره
مطابق الوصل في مرأى ومختبر ... فالخد سهل وأسباب الرضا وعره

بينا يرى جنة في العين مونقة ... حتى يرى جذوة في القلب مستعرة
كيف الخلاص لمطوي على شجن ... وقد تمالت عليه أعين السحره

ومنه

وأغيد في فيه المدام ولحظه ... وفي وفي أعطافه نشوة السكر
تداويت من ألحاظه برضابه ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
ونزهت فكرى في بدائع حسنه ... وفي عقل عزالي على أنها تغرى
تبارك من أنشا بخديه زخرفا ... وسبحان من أنشا عزولي بلا سحر

ومن نسيبه وهو قليل في شعره

شوقا لخرسة العذال إن نظرت ... سباقة لسيوف اللحظ للعذل
نشيطة العطف كحلى الطرف لو كحلت ... لم يرفع الميل جفنيها من الكسل
عدمت صبري ولم أظفر بريقتها ... فما حصلت على صاب ولا عسل

لم نجد للشيخ توفيقا في نسيبه حتى نذكره وإن تغاليه في وصف غادته بالكسل حتى جعل الميل لا يستطيع رفع جفنيها يرى فيه من القبح مافيه

وابن نباتة يميل بكل جوارحه لغزل الولدان وقد قال فى ذلك

يجور كما شاء الدلال ويعدل ... ويتعب فيه من يلوم ويعذل
هو الشمس اشراقا ولكنني أرى ... من الحزم انى عنه لاأتحول

وقد أراد ان يتوب فقال

نزعت فلا الساق لدى براكم ... ولست اباريق المدامة سجدا
وما أنا بالساعى لمحراب طرة ... على طلعة كانت لعشق مشهداً

فتاب توبة ظريفة

﴿الخمريات﴾

من اللاءى خفت فى يمين مديرها ... فلو اهرقتها الكأس لم تتبدد
مصعدة من حيث تم كيانها ... تطاف علينا فى إناء مجسد
فأحسن بها من كف ساق كأنه ... إذا حفها محتاب ثوب مورد
إذا قهقه الابريق فى فه انثنى ... فقل فى قضيب ماس تحت مغرد
كأن سناراووقها وصبيبها ... حبال شعاع الشمس تفتل باليد
كأن بقايا مانضا من كؤوسها ... اساور تبر فى معاصم خرد
كأن مليك الفرس صور نفسه ... على جامها عمداً فمن يدن يسجد

وقال

والكأس فى يد ساقيها مصورة ... تضىء من حول كسرى ضوء بهرام
قد أسرجت وعدت للهم ماجمة ... فهى الكميت بأسراج وألجام
وأجتلى كأسها والشمس ما جليت ... ولا ترشف منها الشرق فى جام

تتبع الشيخ ابن نباتة معانى ابى نواس ليكونه فما كان الا أبا نواس عصره .

﴿الوصف﴾

قال من الأرجوزة التى طلب اليه الملك المؤيد ملك حماة أن يصف بها أيام خروجه لصيد استصحبه فيها — يصف وادى حماة

وحبذا وادى حماة الرحب … حيث زها العيش به والعشب
أرض الثناء والهناء والمرح … والأمن واليمن ورايات الفرح
ذات النواعير سقاة الترب … وأمهات عصفه والأب
تعلمت نوح الحمام الهتف … أيام كانت ذات فرع أهيف
فكلها من الحنين قلب … لا سيما والماء فيها صب
لله ذاك السفح والوادى الفرد … والماء معسول الرضاب مضفرد
يصبو لها الرأى ويهفو السامع … ويحمد العاصى فكيف الطائع
إذا نظرت للربا والنهر … فاروعن الربيع أو جعفر
محاسن تلهى العيون والفكر … ربيع روضات وشحرور صفر
أمام كل منزل بستان … وبين كل قرية ميدان
أما رأيت الورق فى الأوراق … جاذبة القلوب بالأطواق
فبادر اللذة يا فلان … واغنم متى أمكنك الزمان

وقال يصف قبله

قد لوع الحب قلبى فى تلهبه … وصرح الدمع فى ليلى باشقائى
وزال ما زال من وصل شقيت به … من عارض اليأس لكن بعد اشفائى
أيام لى حيث وارت صدغها قبل … كأن سرعتها ترجيع فأفاء

ان التوفيق الذى صادف الشاعر فى أرجوزة الصيد يجعلنا نغتفر له تشبيهه تقبيل محبوبه بالفأفأة فالفأفأة ملومة على كل حال

﴿ موشحاته ﴾

وقد جارى الشيخ الاندلسين فى موشحاتهم فجرى معهم فى ميدانها وكان مصليا يكاتف فيها لسان الدين بن الخطيب — قال

حشا من نار صدك ذائبه … وتحسبها دموعا ساكبه
ولم يفطن لها — سوى صب أقام — على فرش السقام
درى ماقصتي — فحاكى لوعتي — وجارى عبرتي

وبتنا كالحمائم في الحنين وما يدرى الحزن سوى الحزين
سباني بالفتور وبالفنون
غلام شاهر حد الجفون
على وجناته لام ونون
يقول وصال مثلي لن يكون
فيالك من جفون ضاربه بأمثال السيوف القاضبه
إذا ماسلها — أبادت في الأنام — ويالك من غلام
كحيل المقلة — شريف الوجنة — ضنين العطفة
بكيت دما بمرآه الضنين — كأني فيه من عيني ظعين
يعنفني النديم على التصابي
ويحلف لايذوق لي الحباب
رويدك كيف أسلو عن شرابي
وعن ساق يطوف على الصحاب
بكأس للانامل خاضبه تحل عرى النفوس التائبة
وبقية الموشح كله من هذا السكر النباتي المصري

﴿ النثر ﴾

حمل ابن نباتة في عصره لواء المنثور كما حمل لواء المنظوم فجمع بينهما ذكر ابن الوردي في ذيل تاريخ أبي الفداء أن ملك الغرب أبا الحسن المريني أرسل سنة سبعمائة وثمان وأربعين هجرية إلى الشام عشرة آلاف دينار وثلاثة مصاحف كتبها بخطه ليوقفها على الحرمين والقدس وليشترى بالمال أملاكا بالشام يصرف ريعها على قرائها ، وهذه المصاحف الثلاثة موجودة للآن تحت نظر السيد أمين الحسيني بالقدس يخرجها في كل شهر رمضان للمغاربة يقرءون فيها ويرجعها بعد ذلك إلى خزانتها ـ والذى كتب الوقفية هو الشاعر جمال الدين بن نباتة لأنه كان يعمل في ذلك الوقت مع الموقعين في مجلس القضاة (ومنها) الحمد لله الذى أرهف لعزائم المسلمين الموحدين غربا ، وأطلعهم بهممهم حتى في مطلع الغرب شهبا ، وعرف بين قلوب المؤمنين حتى كان البعد قربا ، وكان القلبان قلبا ، وأيد بولاء هذا البيت

الناصرى ملوك الأرض وعبيد الحق سلماً وحرباً ، وعضد ببقائه كل ملك إذا نزل ابنته يوم الكفاح أسلا، ويوم السماح عشبا. واذا ركب البحر لنهب الأعداء كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (ومنها فى ذكر المصاحف)

ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدى ،وخط سطورها بالعربى وطالماخط صفوف الاعداء بالهندى (وختمها بقوله) — والله تعالى يمتع من وقف هذه الجهات بما سطر له فى أكرم الصحائف — وينفع الجالس من ولاة الأمور فى تقريرها ، ويتقبل من الواقف .

وأما رسالة السيف والقلم فأنها تعد معجزة ذلك الشيخ ،قال فيها عن لسان القلم

بسم الله الرحمن الرحيم — ن والقلم وما يسطرون ، ماأنت بنعمة ربك بمجنون — والحمد لله الذى علم بالقلم وشرفه بالقسم ، وخط ماقدر به وقسم ، إلى أن قال

أما بعد فان القلم منار الدين والدنيا ، وقصبة سباق ذوى الدرجة العليا ، ومفتاح باب اليمن المجرب إذا أعيا ، وسفير الملك المحجب،وعذيق الملك المرجب وذمام أموره السائره ، وقادمة أجنحته الطائرة ، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخره . به رقم كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل،وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم التى تهذب الخواطر الخواطل ، فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنة.وحسبه ماجرى على يده الشريفة من منه. إن نظمت فرائد العلوم فالقلم سلكها،وان علت امرة الكتب فانما هو ملكها (إلى أن قال) لا يباديه الا من سفه نفسه،والبس لبسه،وطبع على قلبه وفل الجدال من غربه ، و كيف يعادى من اذا كرع من نفسه ، فقل انا اعطيناك الكوثر ، واذا ذكر شانئه فقل إن شانئك هو الابتر

فعند ذلك نهض السيف عجلا ، وتلمظ لسانه للقول مرتجلا (وقال بسم الله الرحمن الرحيم) وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) الحمد لله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف . وشرع حدها فى يد العصيان فأغصتهم بماء الحتوف . وشيدبها مراتب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص وعقد مرصوف — (إلى أن قال

أما بعد فان السيف زند الحق القوى وزنده الورى ، به أظهر الله الاسلام . وقد جنح خفاء، وجلا شخص الدين الحنفى وقد جمح جماء .وأجرى سيوله بالأباطح ، فأما الحق فمكث ، وأما الباطل فذهب جفاء.

وقال فيما يصف السيف

فهو ذو العزم الثاقب، وسماء المجد الذى زينت آثاره بزينة الكواكب ، والحد الذى كأنه ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، وتحسم به أدواء الفتن المضلة ، وتحذف همه الجازمة حروف العلة (إلى أن قال) وهل يفاخر من وقف الموت على بابه وعضت الحرب الضروس بنابه وقذف شياطين القراع بشهبه ، ومنح آيات شريفة منها طلوع الشمس من غربه

فقام القلم فى دواته وقعد ، واضطرب على وجه القرطاس وارتعد، وانحرف إلى السيف (وقال) أيها المضر بطبعه المغر بلمعه ، الناقض حبل الأنس بقطعه الناسخ بهجره من ظلال العيش فيأ السراب الذى يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً الخ

وقد أهدى منقد نحاس وكتب معه

طالما حمدت معاشرته ، ولذت فى الليالى مسامرته ، وأطلع من أفقه نجوما سعيدة القران ،وتلا على الريح والثلج ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران

إذا كان هذا النثر لايروق فى عين أديب هذا العصر لأنه لايتفق مع أساليب الكتابة فى الوقت الحاضر فقد كانت له دولة عظيمة فى زمانه إذ كان أدباء ذلك الوقت يسجدون له سجوداً.

انتهى

الفهرست

صحيفة